٥- ابن شهيد وابن حزم

وتتراءى لنا خلال فترة الانتقال من العصر الأموى إلى عصور الطوائف شخصيتان عظيمتان من أظهر أعلام الثقافة الأندلسية، هما أبو عامر بن شهيد وأبو محمد بن حزم.

ولقد قُسِمَ لكلا الرجلين أن يرى بعينيه سقوط الخلافة الأموية ويَعْبُرَ بالفترة المحزنة التى صاحبت هذا السقوط، ويبكى فى كلامه وشعره ما أصاب قصور الخلافة فى قرطبة من خراب ودمار، وعرف كل منهما كيف يعرض علينا فى أسلوبه الخاص أصالة النفس الأموية ونُبْلَها خلال أخطر أزمة عبر بها الأندلس الإسلامى فى تاريخه.

فأما أبو عامر بن شهيد (٣٨٢ ـ ٤٢٧ هـ / ٩٩٢ ـ ١٠٣٥م) فهو يمثل فى نظرنا رجل الفكر الصِّرْف. نشأ فى بيت عريق فلم يصبح الأدب فى يده خدمة بل سيادة، وتتراءى لنا فى شعره بين الفينة والفينة لمحات ذات وقع حديث. وأما عن جانبه النقدى فقد خلَّف لنا «رسالة التوابع والزوابع» التى صوَّر فيها رحلة شاعر إلى الجنة، سابقًا بذلك (المعرى، ودانتى) إلى ذلك الموضوع. وتعرَّض للأذى من ملوك الطوائف، وألمَّ به بعد ذلك داء عضال عانَى مرارته فى صبر المتصوِّف ورضاه، ووُورِىَ التراب فى مقبرة «الخير» فى حدائق قرطبة، فرقد رقدة الأبد تحت الزهور.

ومن بديع شعره قطعته البالغة الجمال المسماة «بعد ليلة أُنس»[1] ومنها هذه الأبيات:

---

(١) اختار لها هذا الاسم «غرسيه غومس» عندما ترجمها إلى الإسبانية فى مختاراته (قطعة رقم ٤٧، ص ١١٢).

ولـمَّـا تَمَـدَّدَ مِنْ سُـكْرِهِ ... ونامَ، ونامتْ عيونُ العَسَسْ

دَنَـوتُ إليـهِ عَـلَى قُرْبِـهِ ... دُنوَّ رفيقٍ إذا مَا الْتَمَسْ

أدُبُّ إليهِ دبيبَ الـكَرَى ... وأَسمـو إليـهِ سُموَّ النَّفَسْ

أُقبِّلُ منهُ بَياضَ الطَّلَى ... وأرشفُ منهُ سوادَ اللَّعَسْ

فبتُّ بهِ لَيْـلَتى ناعمًا ... إلى أنْ تَبسَّمَ ثغرُ الغَلَسْ[1]

ومنه هذان البيتان يصف فيهما «العاصفة»:

وقَدْ غرتْ فاهَا دُجًى كلُّ زهرةٍ ... إلى كلِّ ضرعٍ للغمامةِ حافلِ

ومَرَّتْ جيوشُ المزنِ رَهْوًا كأنَّها ... عساكرُ زَنْجٍ مذهباتُ المناصلِ

وأما أبو محمد بن حزم (٣٨٤ ـ ٤٥٥هـ/ ٩٩٤ ـ ١٠٦٣م)، الذى عرف وطنه ـ إسبانيا ـ قدره الصحيح الذى يستحقه بفضل آسين بَلاَثْيوس وما كتبه عنه، فإن حياته تعتبر رمزًا على حياة الأندلس على أيامه. كان شابًا أنيقًا ينتسب إلى بيت رفيع من موالى بنى أمية، دخل ميدان السياسة وهو بَعدُ فى مطالع الشباب، وعانى أوصاب النفى، واشترك فى المؤامرات والتدبيرات التى توالت فيما بعد، ثم أصبح آخر الأمر مفكرًا عضب اللسان وجَوَّابَ آفاق ينازل العلماء والفقهاء، ويتحدى بجدله العنيف آراء فى الفقه والفلسفة والدين، كانت متأصلة فى عقول الناس، حتى لقد سمَّى نفسه فى أحد كتبه «رجلاً جدلياً»، بل «جدليًا جَوَّالاً» لا يقرُّ فى مكان، ويصدق عليه قوله:

لَمْ تستقرّ بهِ دارٌ ولا وطنٌ ... ولا تَدفَّأَ منْهُ قَطُّ مضجعهُ

كأنَّما صِيغَ مِنْ رَهْوِ السَّحابِ فَما ... تَزالُ رِيحٌ إلى الآفاقِ تدفعهُ[2]

(١) المقرى: «نفح الطيب»، جـ ٢، ص ١٣٣.

(٢) ابن حزم: «طوق الحمامة» (طبعة الصيرفى، القاهرة ـ ١٩٥٠م) ص ٨٢.

وكتابات ابن حزم وتواليفه لا تُحصى كثرةً، ويتجلَّى من بين مؤلفاته العلمية تاريخ الأديان المسمى «الفِصَل» وقد تُرجم إلى الإسبانية، ومن بين آثاره الأدبية تبرز اعترافاته التى ضمَّنها كتاب «الخصال» وهو كتاب فيه عمق وعنف، وأحسن تواليفه فى هذه الناحية كتابه عن الحب المسمى «طوق الحمامة» ومقامه فى الأندلس مقام كتاب «الحياة الجديدة Vita Nova» لدانتى فى إيطاليا؛ وهو طاقة زهر أريجة من الأقاصيص ومقطَّعات الشعر والتحليل النفسى الخلقى للحب. وشعره ينم تارة عن عاطفة حارة مشبوبة كقوله:

وددتُ بـأنَّ القلبَ شُـقَّ بمديـةٍ ... وأُدخلتِ فيه، ثم يُطبَقُ فى صَدْرِى

فأصبحتِ فيـه، لا تحلِّينَ غَيْـرَهُ ... إلى مُقتضَى يومِ القيامةِ والحشرِ

تعيشينَ فيـهِ مـا حَييتُ، فإنْ أَمُتْ ... سَكَنتِ شغافَ القلبِ فى ظُلَمِ القبرِ[1]

وتارة أخرى يحلِّق عند قمم التجريد الذهنى، وهو أمر غير مألوف فى الشعر الأندلسى كقوله:

أَمِنْ عالمِ الأملاكِ أنتَ أَمْ إنسىٌّ ... أَبِنْ لى، فقدْ أَزْرَى بِتَمْييزىَ العَىُّ

أَرى هيـأةً إنسيَّةً، غَـيْرَ أَنَّـهُ ... إذا أَعْمَلَ التفكيرَ فالجِرْمُ عُلْوىٌّ

تَبارَكَ مَنْ سَـوَّى مذاهبَ خَلْقِهِ ... عَلَى أنكَ النـورُ الأنيـقُ الطبيعىٌّ

ولا شَكَّ عِنْدِى أنكَ الروحُ سَاقَهُ ... إليـنا مِثالٌ فِـى النفوسِ اتِّصالىٌّ

عَدِمْنَا دليـلاً فِى حدوثكَ شاهدًا ... نقيسُ عليهِ، غيرَ أنكَ مَرئىٌّ

---

(١) نفس المصدر، ص ٦٣.

ولَولا وقوعُ العينِ فى الكونِ لَمْ نَقُلْ سِوَى أنكَ العقلُ الرفيعُ الحقيقىُّ[1]

ولقد كان أندلسيًّا خالصًا، وهذا قوله يدل عليه:

وَياجَوْهَرَ الصِّينِ سُحْقًا! فقدْ غَنِيتُ بياقوتةِ الأَندلسِ

* * *

(١) نفس المصدر، ص ١٠.

obeikandl.com